موسيقى المخمورين !
وأغانى المخدورين التائهين !

بقلم الأستاذ " س . . . "

استمع إلى أية مقطوعة موسيقية أو غنائية — إلا الشاذ النادر — مما يذاع آناء الليل وأطراف النهار فى مصر يخيل إليك أن عازفها أو مغنيها مخمور يعزف لمخمورين ، ومخدور تائه عن الوعى ينشد لمخدورين تائهى العقول ، فاذا أفاق أو أفاقوا بطل العزف والغناء ، وبطل الطرب والاستماع ؟

ما من قطعة أو لحن إلا وهو يخيل للحس مجلس شراب ، تفوح فيه رائحة البخور ، ويعبق فيه أريج المجامر ، ويتصاعد منه دخان النرجيلة ، وقد جلس المستمعون على " الشلت " مخمورين مخدورين مفككى الأوصال ، عيونهم نصف مغمضة ، وأذهانهم شاردة ذاهلة ، تجيش فى أجسادهم شهوات ، وتسبح فى أذهانهم " تهيؤات " تصور لهم اللحم العارى والنزوات الحيوانية ، فلا يقعدهم عنها إلا الخمار والدوار !

وليست المسألة مسألة ألفاظ رخيصة أومائعة مما يأخذه بعض النقاد على الأغانى المصرية فى هذه الأيام ، ولكنها مسألة روح التلحين وروح التطريب التى تغلب على الموسيقى والغناء حتى لتتبدل الألفاظ وتتغير المعانى وتتحور العناوين ، ثم تبقى بعد ذلك كله روح الأداء الرخية المتكسرة ، وروح التلحين المائعة التائهة ، تخرج نغمات السكارى وتصور تهيؤات المخدورين وتتحدث عن الشهوة المريضة فى أجساد منحلة مخمورة !

وعبث أن نلوم محطة الإذاعة أو أن نلوم المؤلفين ، ما دام الملحنون والمطربون كافة هذه روحهم وتلك نشأتهم ؛ فالعيب هو عيب النشأة الموسيقية فى الشرق العربى كله ، إذ أن ما تدعوه " موسيقى شرقية " مأخوذ فى أصله عن الموسيقى الفارسية التى نقلها الجوارى والعازفون من الفرس إلى قصور الخلفاء وغير الخلفاء ، تلبية لمجالس الشراب والقيان دون غيرها من الأغراض .

خلقت هذه الموسيقى إذن لتلك المجالس التى تحدثنا عنها " ألف ليلة وليلة " حجرات مقفلة كل من فيها سكارى مخدورون ، تطوف عليهم الساقيات عاريات أو شبه عاريات بالكؤوس والأباريق ويعبق دخان النرجيلة والبخور فوق رءوسهم ، حتى تخدر أوصالهم

وتسبح خيالاتهم، ثم تعزف لهم الجوارى أو يغنى لهم المطربون، فيتمايلون من السكر والنغم، وأمامهم اللحم الرخيص ، ووراءهم المقصورات فيها كذلك لحم رخيص !

لم يكن لهذه الموسيقى آفاق أخرى غير آفاق السكر والشهوة ، إلا ما يتخللها فى بعض الأحيان من التعبير عن الكبت والحرمان ! والعبرة فى هذا بروح اللحن لا بألفاظ الأغنية ، فقد يعى التاريخ كثيرا من الأغانى فى غير الغزل وغير البكاء، ولكن المجالس التى كانت هذه الأغانى تقال فيها لا يمكن أن تخرج لحنا خاليا من التطريب المخدور والتميع المتمايل ذات اليمين وذات الشمال تلبية للسكر والخمار !

ونحن نشهد أمثلة لهذا فى بعض أغانينا، فهناك أناشيد وطنية يخرجها المطربون وكأنها رقصات متخاذلة وتميعات متراخية ، وتأوهات حزينة ، مع أن ألفاظها وأوزانها تنضح بالقوة وتضج بالفتوة . فيجب ألا تخدعنا الألفاظ عن طريقة الأداء ، والموسيقى التى تنشأ فى جو مجالس الشراب لا تستطيع أن تؤدى مطالب الحياة الأخرى ، ولا أن تسمو فوق نداء الأجساد المهزولة ، ونزوات الأرواح المهدودة !

العيب إذن هو عيب هذه " الموسيقى الشرقية " التى لا تلبى من أغراض الحياة إلا أغراض مجالس الشراب، وقد تطورت فى محيطها الخاص من العازف أو العازفة إلى "التخت" الكامل، ولكن بقيت لها روحها وجوها ومجلسها ولا يبعد بنا الخيال كثيرا حتى نتصور هذا الجو . ففى الليالى التى يحييها المطربون والمطربات فى هذه الأيام شبه كبير بما يدركه من يأخذ نفسه بمشاهدتها وملاحظتها .

فمن هم المستمعون أو غالبيتهم ؟ جماعة تهيئوا للسماع بكؤوس الشراب ، وجاءوا إلى " الصالة " مخمورين أو مخدورين ، وما إن يأخذ المطرب أو المطربة خاصة فى أداء هذه الألحان المتكسرة بأصوات متماوجة متناوحة ، تتخللها تأوهات جنسية مريضة حتى تهتز أجساد أولئك السكارى وتضج حناجرهم بالآهات وتنفلت من أفواه بعضهم ألفاظ وأصوات تدل على حقيقة ما أثارته هذه النغمات فى دمائهم وغرائزهم . وبذلك ينفسون عن الكبت والتشهى ، حتى تستثيرهم المطربة بحركة جديدة أو نغمة معروفة فيعودوا إلى الاهتزاز من جديد وإلى الهتاف من جديد وإلى العربدة من جديد !

وليست هذه " الصالات " وتلك " التخوت " إلا صورة مكبرة لمجالس الشراب ولفتيان المغنيات والعازفات، ولن تبلغ هذه الموسيقى إلا أن تكون هكذا وإلا أن تصلح لمثل هذه المناسبات، دون غيرها من المناسبات الإنسانية العالية، أو الصور الوصفية، أو تصوير الحالات النفسية ، أو استجاشة الفتوة والحمية .

تلك هى نشأة " الموسيقى الشرقية " التى يحرص عليها معهد الموسيقى الشرقى وينفق على تعليمها عشرات الألوف من الجنيهات فيخرج نسخا مكررة من العازفين والمطربين ، كل وظيفتهم تلبية مجالس الشراب وما يشبه مجالس الشراب ، فإذا حاول بعضهم أن يكون موسيقارا مجددا عمد الى بعض الألحان الأوربية فمزج بينها وبين الأوضاع الموسيقية الشرقية كما تمزج بين "الشمبانيا" و "العرقسوس" ! وأخرجها مائعة مسترخية باكية ذليلة مريضة.

وبعض هؤلاء يحتج على سلوك هذا الطريق بذوق الجماهير واستجابة الجماهير . والجماهير معذورة ، فهى مخدرة ليل نهار بهذه الالحان وليس لديها وقت تفيق فيه وليس لها غداء آخر توازن بينه وبين هذا الغذاء . والاحتجاج بالجمهور على كل حال وسيلة التاجر لا الفنان .

على عكس هذه النشأة سارت الموسيقى الغربية والموسيقى المصرية (وهى شىء آخر غير الموسيقى الشرقية) فكل من هذه وتلك نشأت فى جو المعابد — وللمعابد رهبة — نشأت رائعة هائلة تحاول أن تحوط المستمعين بجو مرهوب وأن تنقلهم إلى السماء وأن تبعد بهم عن صغار الدنيا وتفاهة العيش ، وأن تصلهم بالآلهة والأرباب .

فأما فى أوربا فقد نشأ أعظم الموسيقيين — كما نشأ أعظم المصورين والمثالين — فى حجر الكنيسة ، وكانت موسيقاهم صلة بين عالمى الفناء والبقاء ، وبين الأرض والسماء ، فحملت فى ثناياها رهبة وعظمة لم تفارقاها حينما خرجت بعد ذلك إلى الطريق والى الأوبرا والى تلبية الأغراض الحربية والاجتماعية ، إذ أنها كانت تحمل عناصر صالحة للتسامى والتعبير عن الأجواء النفسية العالية .

تلك هى الموسيقى الارستقراطية ، فأما الموسيقى الشعبية فقد كانت تصاحب الأغانى الشعبية وتصور غاياتها ، فقد روى أن " هوميروس " كان يغنى أناشيده ، وكان العازفون الجوالون يلحنون أغانيهم فيضطرهم هذا إلى الملاءمة بين المعنى والنغم والجو الشعبى الطليق الذى يعيشون فيه ويغنون له .

وكذلك نشأت الموسيقى المصرية فى المعابد والهياكل كما نشأت فى أوساط الجماهير وترنيمات العمال ، ولسوء الحظ أن هذه الموسيقى لم تسجل فى " نوتة " حتى نستعيدها الآن . ولكن بقية من موسيقى المعابد حفظتها تراتيل الكنيسة القبطية ، وبقية من الموسيقى الشعبية حفظتها ألحان الصعايدة وأغانيهم الشجية ، وفى الأولى تلمح حتى اليوم الرهبة والخشوع والتهويل ومحاولة الصعود عن جو الأرض الموبوء . وفى الثانية تلمس شجى المكروب ، وحنين الريب ، وبث المحروم ، ونجوى المكلوم . وهذا هو تعبير الشعب الذى يرسف فى المظالم والحرمان عشرات الألوف من السنين .

وقد وجدت الموسيقى الغربية من استطاع أن ينقلها من جو المعابد والهياكل إلى " الأوبرا " والى تلبية الحالات النفسية ، والى تصوير الطبيعة ، والى الأغراض الإنسانية العالية والأغراض الاجتماعية العامة ؛ ولم تجد الموسيقى المصرية من يخرجها من عزلة المعابد والهياكل ، بل لم تجد من يسجلها لتبقى لنا أصولها — إلا بقية معدلة فى التخانس — ، كما لم تجد الموسيقى الشعبية — ولا تزال معالمها فى أغانى الصعيد — من يعنى بها ويستوحيها ويرتقى بها وينوعها .

ونهضة الموسيقى المصرية موقوفة الآن على الفنان الموهوب الذى يستجمع بقاياها من الألحان الكنائسية ومن الأغانى الصعيدية ، ثم يحاول أن يجعل منها موسيقى عصرية تلبى حاجات النفوس وأغراض الشعب ودواعى المناسبة فى الجيل الجديد .

وما من شك أن استيحاء هذه الأصول الباقية عمل صعب ، لأن هناك فاصلا سحيقا من الزمن ومن التطورات النفسية والعقلية والاجتماعية والدينية والسياسية ؛ ولكن هذا هو السبيل الوحيد لإيجاد موسيقى مصرية مستساغة تلبى مطالب النفس المصرية التى لاتزال مصريتها سارية فى دمها وأحاسيسها من وراء القرون والأجيال ، على رغم الفتوحات والتقلبات !

ولم يع التاريخ الحديث فى مصر إلا مغنيا واحدا موهوبا لم يمهله القدر ليؤدى رسالته ، هذا الفنان الموهوب هو المرحوم " سيد درويش " فهذا هو الرجل الذى حاول — فى حدود ضيقة — أن يصل بين الموسيقى وبين الطبيعة أو بينها وبين الحالات النفسية . هذا هو الرجل الذى كان يترصد للعمال فى غدوهم ورواحهم وفى أغانيهم وأناشيدهم ليصوغ من روحهم وجوهم أغانى لهم وأناشيد منتزعة من أحاسيسهم ممثلة لظروفهم ، ومن هنا التهموها وترنموا بها كأنها رجع شعورهم وصدى ضميرهم . وهو الذى كان يترصد للطبيعة فيستوحيها النغمة والجو فوق القناطر الخيرية فى الليالى القمرية حيث تظهر أشباح الأجداد فى إحدى رواياته لتملىء نفسه باللحن وبالجو قبل أن يثبته على الورق " مسافات وأرباعا وأنصافا " .

ثم مات ! ! !

* * *

إن الدعوة التى أدعوها لاستيحاء بقايا الموسيقى المصرية دعوة صعبة المنال ، وسيجدها الكثيرون من المثقفين شبه خيالية ، كما أن الذين يدعون أنفسهم موسيقيين وملحنين سيفغرون أفواههم عجبا منها ، لأن ثقافتهم لاتسمح لهم بمعرفة شىء من هذه الاتجاهات . وتلك هى المصيبة ، إذ أن الثقافة عنصر أساسى لأى فنان فى هذا العصر ، ولكنا لانطالب بها الموسيقيين كما نطالب الأدباء وبقية الفنانين !

إلا أنها دعوة يجب أن أجهر بها على كل حال ، فقد يكون القدر فى هذه الأيام أو فيما بعد يخبئ لنا فنانا واحدا موهوبا تتفتح ملكاته فى هذا السياق ، فيصل الماضى بالحاضر ويصوغ للمصريين ألحانا من قلب مصر ، لا من قلوب شتى لاتربطها بالمصريين رابطة !

إن الموسيقى الغربية غنية بكل الألوان ، وقد يخطر لبعضنا أن الاقتباس منها أقرب متناولا وأقل كلفة ، ولست أنكر أنى وكثيرين غيرى من المصريين يطربون لبعض الألحان الغربية ولا سيما ما يصور منها حالات نفسية وما يعبر عن مجالى الطبيعة . ولكن الفنون لاتنقل نقلا فهى مستمدة من قرارات النفوس وأعماق الأمزجة ، ولست أشك فى أن الألحان المصرية الضائعة تستجيشنا لو أعيدت على أسماعنا أضعاف ما تستجيشنا الألحان الأوربية حتى ما نستسيغه منها استساغة تامة .

وعلى أية حال فالذين يطربون لبعض الألحان الأوربية " يقرفون " بهذا التعبير العامى من الألحان المسروقة منها مما نقله بعضهم إلى الموسيقى الشرقية ، " يقرفون " وتتبع نفوسهم من " القرف " لهذا الخلط الذى لا يخرج عن خلط " الشمبانيا " " بالعرقسوس " سواء بسواء !.

فإذا خطر لأحد منا أن ينقل الموسيقى الغربية الى مصر وأن ينهض بهذا الفن عن هذا الطريق فيجب أن يختار طريق النقل الصريح ، وهيهات فى هذه الحالة أن تلبيه الطبائع أو الأمزجة المصرية التى عاشت فى أجواء أخرى غير أجواء تلك الألحان المنقولة .

أما محاولة ترقية الأغنية المصرية عن طريق ترقية المعانى والأغراض وتنقية الألفاظ والعبارات فهى محاولة محدودة الأثر ، بل محاولة شكلية لا تتعمق النفس الإنسانية التى تتأثر باللحن أشد من تأثرها باللفظ وتستجيب للنغمة قبل أن تستجيب للمعنى . واللحن والنغمة مرهونان بالموسيقى والملحن قبل المؤلف والمغنى .

وقد تبرأ القطعة فى تأليفها من السقوط المعنوى والقبح اللفظى ثم تخرج من فم المطرب والمطربة شائهة منكرة فتؤثر بنغماتها وأدائها تأثيرها السيىء الذى تتحاشاه فى الألفاظ والمعانى.

فاللهم ارزقنا فنانا واحدا موهوبا يصل الماضى بالحاضر ، ويستنقذ لمصر نغماتها الضائعة فى ثنايا الأزمان السحيقة ، ليصوغ منها فنا جديدا له من الماضى جذور وبذور .

" س . . . "